

## الأخلاق والهوية الإنسانية قراءة في فكر المفكر طه عبد الرحمن-

الدكتور حفيظ سليماني<sup>(1)</sup>

### خلاصة المقالة:

تناولت هذه المقالة مجموعة من الأفكار الرئيسة التي تخصّ المسألة الأخلاقية، بمقاربة وجه الحاجة إلى الممارسة الأخلاقية من خلال ثلاثة اعتبارات؛ أهمّها التحول الذي يشهده العالم في مختلف مجالات الحياة، ثمّ تطرّقت للحديث عن قضايا أخرى لها أهميّة خاصة ترتبط بالمسألة الأخلاقية؛ كالتفريق بين العقل والشرع ومدى صوابية هذا التفريق، والتفرقة بين العقل والقلب وعدم استقامة تلك التفرقة. ثمّ فصلت الكلام في أركان النظرية الأخلاقية الإسلامية، وتوصلت من خلال ذلك إلى أنّا مطالبون اليوم، أكثر من ذي قبل، بوضع فلسفة أخلاقية إسلامية جديدة تجيب عن أسئلة السائل في العالم المنتظر؛ بتعبير المفكر طه عبد الرحمن.

### كلمات مفتاحية:

الإسلام، العقل، القلب، الشرع، الأخلاق، الإنسان، الهوية، الكونية،  
الميثاق.

(1) باحث في الفكر الإسلامي، من المغرب.

لا خلاف في مقوله «إِنَّهُ أَيْنَمَا وُجِدَتِ الْأَخْلَاقُ، فَثُمَّ الرُّقِيُّ وَالْتَّحْسِرُ»؛  
إِذ الْقِيمُ وَالْمَعْنَانُ الشَّرِيفُ مَطْلُوبٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَالْمَتَّأْمِلُ فِي  
السَّنَّةِ النَّبُوَّيَّةِ يَجِدُ أَنَّ الْفَعْلَ الْأَخْلَاقِيَّ مَتَّأْصِلٌ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ، حِيثُ  
رَوِيَ عَنِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّمَا بُعْثَتْ لِأَتَّمِمِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»<sup>(1)</sup>.  
فَالْأَخْلَاقُ أَمْرٌ مَطْلُوبٌ، بَلْ نَجْدُه ﷺ يَصْرَحُ بِأَنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ أَهْلُ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ: «إِنَّ مَنْ أَحَبْتُمُ إِلَيَّ وَأَقْرَبْتُمُ مِنِّي مَجْلِسًا  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا»<sup>(2)</sup>.

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي كَثُرَ فِيهِ الْعَدِيدُ مِنَ الظَّوَاهِرِ السَّلْبِيَّةِ فِي الْمَجَمِعَاتِ  
الْبَشَرِيَّةِ، أَصْبَحَ الْحَدِيثُ عَنْ فَضْلِيَّةِ الْأَخْلَاقِ أَمْرًا ضَرُورِيًّا وَمُلْحَدًا؛ لِأَنَّ الْأَخْلَاقَ  
تُعَدُّ مِنَ الدَّعَائِمِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي يَلْزَمُ أَنْ يَقُومَ عَلَيْهَا نَظَامُ الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ؛  
بِحِيثُ تَسْهِمُ فِي بَنَاءِ مَجَمِعٍ مُتَمَاسِكٍ مُبْنَىً عَلَى الاحْتِرَامِ وَالْتَّسَامِحِ بَيْنِ  
أَفْرَادِ الْمَجَمِعِ.

وَنَظَرًا إِلَى أَهْمَيَّةِ الْمَسَأَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَدُورُهَا فِي الرُّقِيِّ الْحَضَارِيِّ، سَوْفَ  
نَخْصُصُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ لِتَقْدِيمِ مَقَارَبَةٍ فِي تَصُورِ الْمُفَكِّرِ الْمَغْرِبِيِّ طَهِ عبدِ الرَّحْمَنِ  
الرَّحْمَنِ لِلْأَخْلَاقِ وَفَاعْلَيْتَهَا فِي بَنَاءِ مَجَمِعٍ حَضَارِيٍّ.

130

الأخلاق والمهنية الإنسانية - فكره في فكر المفكر طه عبد الرحمن  
الدكتور خديجي سليماني

## أولاً: وجه الحاجة إلى الممارسة الأخلاقية:

يُرى طه عبد الرحمن أن الحاجة إلى التأمل في الممارسة الأخلاقية  
من قِبَلِ الْمُفَكِّرِ الْمُسْلِمِ باتت الْيَوْمَ أَشَدَّ مِنْهَا فِي أَيِّ وَقْتٍ مُضِيٍّ؛ وَذَلِكُ  
لِاعتباراتِ ثَلَاثَةٍ: هِيَ:

- أن الآفات التي تحملها حضارة اللوغوس إلى الإنسان؛ وهي النقص  
والظلم والتأزم والسلط، تؤذى الإنسان في صميم وجوده الأخلاقي؛ بما

(1) البهقي، أحمد بن الحسين: السنن الكبرى، لا ط، بيروت، دار الفكر، لا ت، ج 10، ص 192.

(2) الترمذى، محمد بن عيسى: سنن الترمذى (الجامع الصحيح)، تحقيق وتصحيح: عبد الرحمن محمد عثمان، ط 2، بيروت، دار الفكر، 1403هـ-1983م، ج 3، ح 2041، ص 235-236.

يباًس معه من الصلاح والفلاح في مآلها. وهذا يدعونا إلى الشروع ببناء حضارة جديدة يكون فيها السلطان للإيتوس (الخلق) وليس للوغوس.

- أن العالم، بلا شك، مُقبل على تحولٍ أخلاقيٍ عميق، في ظلٍ ما يشهده من تحولات متلاحقة في جميع مناحي الحياة الفردية وميادين الحياة المجتمعية.
- أن هناك غياباً كلياً للمساعي التي تعمل على تجديد النظر في الأخلاق الإسلامية؛ بما يجعل هذا النظر يضاهي الفلسفات الأخلاقية الغربية الحديثة، ويمكّنه من مواجهة التحدي الأخلاقي المقبل؛ وهذا الغياب المؤسف لن يزيد المسلمين إلا تضعضاً في مركزهم.

### ثانياً: معالم النظرية الأخلاقية الإسلامية:

انطلاقاً من الاعتبارات المتقدمة، يرسم طه عبد الرحمن جملةً من المعالم الأساسية لنظرية أخلاقية إسلامية، وهي بمثابة مسلمات، تسهم في ملء الفراغ الذي قد يلحق الضرر بال المسلمين. ويمكن إيجاز هذه المعالم بالآتي:

131

#### 1. الصفة الأخلاقية للإنسان:

مقتضى هذه المسلمة حسب طه، أنه لا إنسان بغير أخلاق، يقول: «فلا يخفى أن الأخلاق الحسنة صفات مخصوصة الأصل فيها معانٍ شريفة أو قل: قيم علياً؛ كما لا يخفى أن ليس في كائنات هذا العالم مثل الإنسان تطلعًا إلى التحقق بهذه المعانٍ والقيم، بحيث يكون له من وصف الإنسانية على قدر ما يتحقق به منها، فإذا زادت هذه المعانٍ والقيم زاد هذا الوصف، وإذا نقصت نقص»<sup>(1)</sup>. هذه المسلمة تتربّى عليها ثلات حقائق: أولاً: إن هوية الإنسان ذات طبيعة أخلاقية. ثانياً: إن هذه الهوية ليست رتبة واحدة بل متعددة. والثالثة: هوية الإنسان متغيرة وليس ثابتة.

(1) عبد الرحمن، طه: سؤال الأخلاق (مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية)، ط1، المركز الثقافي العربي، 2000م، ص147.

### 3. عدم الفصل بين العقل والشرع:

اعتراض طه عبد الرحمن على تسلیم فقهاء المسلمين بالفرق بين العقل والشرع؛ كقولهم: يجوز شرعاً وعقلاً، أو قولهم: يجوز في العقل ولا يجوز في الشرع، فذكر اعترافين على هذه التفرقة؛ أولهما: الراجح أن هذه التفرقة لم تحدث في هذا الخطاب، أو على الأقل لم تتحقق فيه، إلا بعد استئناس المسلمين بعض الأفكار اليونانية التي نشرتها بين ظهرانיהם المدارس اللاهوتية في الشام وال العراق وفارس... فكانوا يعدون مجموع ما نقل عن اليونان بمنزلة نتاج العقل الصريح، وأن ما جاء به الشرع فله منزلة ما ليس من نتاج العقل. والاعتراض الثاني، «أن الذي يفرق بين العقل والشرع يقع في مغالطة الإبهام؛ ذلك أنه لا يبيّن الوجه الذي تحصل به المقابلة بين العقل والشرع»<sup>(2)</sup>. ويرى طه عبد الرحمن أنه لا يمكن

(1) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، م.س، ص148.

(2) م.ن، ص150.

التفريق بينهما؛ لكون العقل الإنساني صادراً عن الله تعالى، وكذلك القول الشرعي؛ فالله تعالى هو المُوجِد لهما.

#### 4. عدم الفصل بين العقل والقلب:

يرى طه عبد الرحمن أن التفريق بين العقل والقلب لا يستقيم البُتْة، وذلك من خلال اعترافين اثنين: أولهما؛ أن ذلك الفصل أفضى إلى تشييء العقل؛ وكأنه ذات داخل جسم الإنسان، مع العلم أن ليس في القرآن أو في الحديث الشريف ما يؤيد ذلك التشبيه، «بل إنّ ما نجده هو، على العكس من ذلك، شواهد تبني هذا التشبيه، فقد جاء فعل العقل فيها مسندًا إلى القلب؛ بوصفه الفعل الذي يختص به، كما تختص العين بفعل النظر، وتختص الأذن بالسمع، فيكون الواقع في تشبيه العقل كمن يُشَيَّئ النظر أو السمع...»<sup>(1)</sup>. والاعتراض الثاني؛ أن هذا الفصل بين العقل وأفضى إلى الغلو في تفقيه الممارسة الدينية؛ والمراد بذلك «التقنيين الفقهي» لأفعال المكّلفين؛ بما يجعل الاعتبار فيها أساساً لظاهر موافقتها للأحكام المقرّرة، مع إهمال المعانى الْخُلُقِيَّة التي تنطوي فيها، والتي لو تصوّرنا هذه الأحكام مجردة من إفادتها، لصارت أحكاماً لاغية، والحال أنّ الناظر في النص الشرعي الأصلي لا يسعه إلا أن يلحظ بأنّ الحكم الواحد من أحكامه ينضبط دائمًا بصفة خُلُقِيَّة أو أكثر، يتوجّب على المكّلّف أن يحصلها، فيكون الأصل في الحكم الفقهي هو القيمة الْخُلُقِيَّة»<sup>(2)</sup>. وعليه؛ يكون العقل فعلاً قليلاً صريحاً، وكلّ فعل قلبي فهو فعل خُلُقِيٌّ تتحدد به إنسانية صاحبه؛ حسب تعبير طه عبد الرحمن.

#### 5. عدم الفصل بين العقل والحسّ:

يرى طه عبد الرحمن أن التفرقة بين العقل والحسّ سادت مختلف شعوب

(1) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، م.س، ص 152.

(2) م.ن، ص 153.

المعرفة الإسلامية، فعدوا العقل والمعقول أشرف، والحسن والمحسوس أحسن، ويردد طه على هذه التفرقة، بأننا «لا نجد لهذه التفرقة أصلاً في النص الشرعي؛ كتاباً منزلاً أو سنة مطهرة، بل كل الشواهد تدل على أن هذا النص يصل بين العقل والحسن وصلاً قوياً، بحيث يكون في الحسن عقل، وفي النظر عقل، وفي السمع عقل، وفي النطق عقل، وأماماً إذا لم يكن في الحسن عقل، فلا يُعد حسناً»<sup>(1)</sup>، فـ«الفصل بين العقل والحسن أفضى إلى تقديس العقل؛ بما يقرب من التأليه، حتى إن هذا الكلام يجوز بهذا الصدد عن نوع من الوثنية العقلانية... وباختصار؛ فإن الفعل الحسني كال فعل العقلي؛ يصدر عن القلب، فهو مثله يحمل أسباباً عقلية؛ كما إن الفعل العقلي، على العكس من ذلك، يحمل أسباباً حسنية؛ ولا مسوغ للمفاضلة في الطبيعة بين الفعلين، ولا بالأولى لتمجيد أحدهما على الآخر»<sup>(2)</sup>.

### ثالثاً: أركان النظرية الأخلاقية الإسلامية:

يرى طه عبد الرحمن أن الممارسة الأخلاقية تتبع أحد طريقين؛ إما طريق الإلزام؛ وهو الأوامر والنواهي التي تُفرض من خارج على إرادة الإنسان، وإما طريق الاعتبار؛ وهو عبارة عن القيم التي يستنبطها الإنسان تلقائياً مما يشهده من أفعال ويتلقيه من أقوال، وطريق الاعتبار هو الطريق الأنسب للإنسان؛ وذلك لسبعين اثنين؛ أحدهما أن قلب الإنسان ينفر من أن يأمره أحد؛ لشدة تشبيته بالحرية، وعليه؛ فالإنسان كلما تلقى مضمون حكم خلقي بغير صورة الإكراه يكون أكثر استعداداً لقبوله. والثاني «أن الحياة الخلقيّة للإنسان ليست لحظات منفصلة في ما بينها، تحكم كل لحظة منها أوامر أو زواجر معينة، وإنما هي واحدة من الأفعال التي تشكل تاريخاً خاصاً ب أصحابها؛ وبهذا يكون كل فعل خلقيّ عبارة عن حدث

(1) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، م.س، ص154.

(2) م.ن، ص155.



ب. أخلاق الميثاق الأول متعددة إلى العالم كله؛ أي إن هذه الأخلاق لا تخص صلاح الفرد الواحد، ولا الأمة الواحدة؛ وإنما تخص صلاح البشرية كلها؛ «ذلك أنها ترفع همة الإنسان إلى أن يأتي بأفعاله على الوجه الذي يجعل نفعها يتعدى نفسه وأسرته ووطنه إلى العالم بأسره، بحيث تكون كل بقعة من العالم وطنًا له، ويكون كل إنسان فيها أخًا له، ويكون كل كائن سوى الإنسان نظيرًا له في الخلق. انظر كيف إن الشارع الإلهي أخذ الميثاق من البشر، وهم في مشهد واحد؛ بوصفهم من صلب واحد، ينزلون إلى أرض واحدة!»<sup>(1)</sup>.

ج. أخلاق الميثاق الأول شاملة لكل أفعال الإنسان؛ أي لما كانت كل أفعال الإنسان صادرة عن عقله الذي أعطى هذا الميثاق؛ لزم -إذا- أن تشملها هذه الأخلاق جميًعاً؛ بلا استثناء.

## 2. القلب والتطهير الأخلاقي:

يرمز القلب في الممارسة الإسلامية إلى ذات كامنة في الإنسان تعبر عن حقيقته، وتصدر عنها أفعاله كلها؛ إذا صلحت صلح الإنسان كله، وإذا فسدت فسد الإنسان كله. وهنا، يتحتم التصدي لهذه الذات الخفية في الإنسان ومبشرة إصلاحها، «بيد أن أحق الذوات الخفية بهذه المباشرة إنما هي الذات الخفية للإنسان الأول، والإنسان الأول على نوعين اثنين: الإنسان الابتدائي -أو إنسان الفتح-؛ وهو الإنسان الذي تلقى أول طور من أطوار تحقيق ميثاق الجمع بين العقل والشرع -أي الطور الفاتح-؛ ألا وهو أبو البشر آدم عليه السلام! والإنسان النموذجي -أو إنسان الختم؛ وهو الإنسان الذي تلقى آخر طور من هذا التحقيق للجمع بين العقل والشرع -أي الطور الخاتم-؛ ألا وهو سيد البشر محمد ﷺ! ولما كان هذا الطور النهائي للطور الأكمل والأتم؛ فقد استوجب أكثر من غيره العناية بهذه الذات الخفية»<sup>(2)</sup>.

(1) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، م.س، ص158.

(2) م.ن، ص160-161.

### 3. تحويل القبلة والأخلاق الحركية:

يرى طه عبد الرحمن أن المتأمل في حادثة تحويل القبلة، لا بد له من أن يجد أن الأخلاق التي تولّدتها تتّصف على الأقل بالخصائص التالية:

أ. أخلاق القبلة أخلاق إشارية؛ حيث «يقع التوجّه إلى القبلة عند الصلاة؛ وفي هذا مفارقة عجيبة؛ ذلك أنّه ليس في الأجسام أدلّ من محل القبلة على معنى الحسّ والمكان والجهة»<sup>(1)</sup>؛ فالتوجّه نحو القبلة توجّه محسوس، والإنسان يرى في ذلك معقولاً وهو يؤدي صلواته.

ب. أخلاق القبلة أخلاق افتتاحية: وسمّيت القبلة كذلك لخاصيّتين اثنتين: أولاهما الاستقبال؛ فهي الجهة التي يستقبلها المصلي، وثانيهما المقابلة؛ فهي الجهة التي يقابلها وتقابله. «وعلى قدر المتوجّه إليه تزداد قيمة الانفتاح عليه كما تزداد واجباته. ولما كان المتوجّه إليه حسّاً: البيت، والمتوّجّه إليه عقلاً: الحامي له؛ كان هذا الانفتاح أنسع أشكال الانفتاح وأوجبها للأدب. ولا أقدر على أنْ ينهض بحقوق هذا الأدب من المتوجّه الذي يكون قد اجتاز عملية شقّ الصدر، هذا النهوض الذي يجعل أخلاقيّته تزداد بما لا يزداد به غيرها»<sup>(2)</sup>.

ج. أخلاق القبلة أخلاق اجتماعية: تعتبر القبلة مركز اجتماع بمعنىين اثنين؛ أحدهما: أنّها الوجهة التي يستقبلها المسلمون أهل الميثاق، والثاني: أنّها الوجهة التي يقصدها أهل الاستطاعة كلّ سنة. «وجملة القول في حادثة تحويل القبلة أنّها تمدّ الإنسان بأخلاق تجعله يتولّ بالعبارة المحسوسة؛ للانتقال إلى الإشارة المعقولة؛ كما تجعله يطلب الانفتاح والتعرّف على الأشياء من حوله، ويندفع في الحياة الجماعيّة متقلّلاً مع أطوارها المختلفة؛ أي إنّها تمدّ الإنسان بأخلاق تخرجه إلى العالم؛ دلالة، ومحيطة، ومجتمعًا؛ وبهذا، تكون أخلاق تحويل القبلة

(1) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، م.س، ص 165.

(2) م.ن.

هي الأخلاق الحركية بحقّ، وليس العالم المنتظر بأقلّ حاجة إلى أخلاق الحركة منه إلى أخلاق العمق<sup>(1)</sup>. ومن هنا، نكون قد وقفنا على مكانة القبلة؛ باعتبارها تاريخاً أخلاقياً للإنسان.

«إنّا مطالبون، أكثر من ذي قبل، بوضع فلسفة أخلاقية إسلامية جديدة تجيب عن أسئلة السائل في العالم المنتظر؛ وقد اجتهدنا في استخراج بعض الأصول العامة التي يمكن أن تُبني عليها مثل هذه الفلسفة؛ فكان أن انطلقنا من مسلمتين أساسيتين؛ هما: لا إنسان بغير أخلاق، ولا أخلاق بغير دين، بُنيت عليهما النتيجة الحاسمة؛ وهي: لا إنسان بغير دين»<sup>(2)</sup>.

### خاتمة:

لقد أبدع المفكّر المغربي طه عبد الرحمن في تقديم رؤية خاصة عن المسألة الأخلاقية، من خلال دعوته إلى بناء حضارة جديدة يكون فيها السلطان للإيلاتوس، مؤكّداً على قضية جوهريّة قوامها رفض الفصل والتفرقة بين العقل والشرع، وبين العقل والقلب، وكذلك بين العقل والحسّ، ومستنتاجاً أن «لا إنسان بغير أخلاق، ولا أخلاق بغير دين»؛ ما يعني أنّ المسألة الأخلاقية هي هوية الإنسان.

الأخلاق والهوية الإنسانية - فكره في فكر المفكّر طه عبد الرحمن -  
الدكتور خديج سليماني

(1) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، م.س، ص166-167.

(2) م.ن، ص169.